القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وقعة الجمل

عبد الحميد جودة السحار

١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرا » .

(قرآن كريم)

١

خرجت عائشةُ وطلحةُ والزُّبيرُ ووجوهُ بنى أميَّةَ من مكة ، واستمرّوا فى السَّيرِ قاصدينَ العراق ، وقابلهم فى الطَّريقِ أحدُ أقاربِ عثمان ، فخلا بطلحةَ والزُّبيرِ وقال لهما :

ــ إنْ ظفرتُما (أى انتصرتما) فَلِمن تجعلانِ الأمر ؟ أصدقانى .

ــ لأحدِنا إذا اختارَه النَّاس .

ــ بل اجعلوه لوَلدِ عثمان ؛ فإنَّكم خرجتُم تطلبونَ بدمِه .

فقالوا له فى إنكار :

ــ ندع شيوخَ المهاجرينَ ونجعلُها لأبنائِهم ! فرجع قريبُ عثمان ، ورفض أن يخرجَ معهم ، واستمرَّ

الرَّكبُ في سيره ، وحـان أوانُ الصَّـلاة ، فـأذَّن مَروان ، ثم جاء طلحةَ والزُّبيرَ ، وقال :

ــ أيُّكما أسلِّم عليه بالإمرة ، وأؤَذِّن بالصلاة .

رأى عبدُ اللّه بنُ الزُّبير أنَّ أباهُ أحقُّ بإمرةِ القـوم ، فقال :

ــ على أبى عبدِ اللّه .

وقال محمَّدُ بنُ طلحة :

ــ على أبى طلحة .

وكاد الشِّقاقُ يقعُ بين القوم ، لولا أن تداركتْ عائشةُ الأمر ، فأرسلت إلى مروان :

ــ مالك ! أتريدُ أن تفرِّقَ أمرنا ، فلْيُصلِّ ابـنُ أختي .

فصلَّى عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبيرِ بالنَّاس ! تركتْ عائشة شيوخَ المهاجرين ، وجعلتها فى أبنائهم .

ورحل القوم ، وكانوا كلّما مرّوا على ماء أو وادٍ سألوا الدّليل عنه ، حتّى بلغوا ماء ، فأخذتِ الكلابُ تَنْبح ، فَسألوا الدّليل :

ـ أيُّ ماء هذا ؟

ـ ماءُ الحوءَب .

ففزعت عائشة ؛ فقد تذكّرتْ يومَ قال النّبيُّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، لنسائه فى إنكار :

« ليتَ شِعرى ، أَيّتُكُنَّ الّتى تنبحُها كلابُ الْحَوْءَب ؟ » لقد تيقّنتْ فى هذه اللّحظةِ أنّ النّبىَّ لا يرضَى عن خروجِها هذا ، فصرختْ بأعلى صوتها :

ـ أنا واللّهِ صاحبةُ كِلابِ الْحَوْءَب ، رُدّونى ، أنا صاحبةُ كلابِ الْحَوْءَب ، رُدّونى رُدّونى .

وأناختْ بعيرَها ، فأناخ النّاسُ حولَها ، وخشِىَ القومُ أن تعودَ عائشةُ إلى المدينة، ففكّروا فى أن

يفعلوا شيئا يضطَرُّها إلى المسير ، فجاءَ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبير ، وقال لها :

ـ النَّجاةَ ! النَّجاةَ ! فقد أدرككم واللّهِ عليُّ بنُ أبي طالب .

فصدَّقتْ قوله ، وسارت لتُؤلِّبَ النَّاسَ على أميرِ المؤمنين .

٢

جاءَ عليًّا خبرُ خروج عائشةَ وطلحةَ والزُّبير ، فخرج وهو يرجو أن يلحقَ بهم فى الطريق ، فيحولَ بينهم وبين الخروج ، ولكنْ بلغه أنَّهم فاتُوه (أى سبقوه) ، فعزم على أنْ يخرجَ فى آثارهم ، وسار عليٌّ حتى نزل بجيشِه بحيال جيوشِ عائشةَ وطلحةَ والزُّبير ، وراح بعضُهم يخرُجُ إلى بعض ، ولا يتحادثون إلاَّ فى الصُّلح ، وخشِيَ قَتَلةُ عثمانَ أن يتَّفقَ الطَّرفان ، ويتمَّ الصُّلح ، وأنْ يقعَ عليهمُ العقاب ، فقاموا فى عَمايَةِ الصُّبح ، وانسلُّوا إلى المعسكرِ الآخر ، وأخذوا يضربونَ النَّاسَ بأسيافِهم ؛ فانتشرتِ الْجَلَبة ، فخرج عليٌّ يسألُ عن الخبر ، فقيلَ له :

ــ فُجِئْنا بقومٍ منهم يهجمُون علينا ، فرددْناهم .

فصاح عليّ :

ـ أيُّها النَّاسُ كُفُّوا .

أسرع رجلٌ إلى عائشة . فلما دخل عليها ، قال لها :

ـ أدركي ، فقد أبى القومُ إلا القتال ، لعلَّ اللّـهَ يُصلِحُ بك .

وخرجتْ عائشة ، وحمل النَّاسُ هَوْدَجَها ، وشدُّوه إلى الجمل ، وأقبلتْ عائشةُ على هودجها ، فلما برزتْ من البيوت ، وكانت بحيث تسمعُ الغَوْغاء ، وقفتْ فلم تلبثْ أن سمِعتْ ضوضاءَ شديدة ، فقالت :

ـ ما هذا ؟

ـ ضجةُ العسكر .

ـ بخيرٍ أو بشرّ ؟

ـ بشرّ .

فقالت للآخذِ بخطامِ جَملها :

ـ تقدَّمْ بكتاب اللّه عزَّ وجلَّ ، فادعُهم إليه .

فخرج الرجلُ يحملُ المصحف ، ويدعوهم إلى كتابِ اللّه ، فخشِيَ قَتَلةُ عثمانَ الصُّلح ، فرشقوا الرَّجلَ رشْقًا واحدا فقتلوه ، وراحوا يرمونَ عائشة في هودجها ، فنادت :

ـ يا بَنِيَّهْ ، البقيةَ البقية ، اللّهَ اللّه ، اذكروا اللّهَ عزَّ وجلَّ والحساب .

ولكنَّ قتلةَ عثمانَ صَمُّوا آذانَهم ، فقالتْ عائشةُ للناس :

ـ أيُّها النَّاس ، العَنوا قَتَلةَ عثمانَ وأشياعَهم .

وأخذتْ تدعو ، وارتفعتْ أصواتُ النَّاسِ بالدُّعاء ، وسمِعَ عليُّ بنُ أبي طالب جلَبة ، فقال :

ـ ما هذه الضجَّة ؟

فقالوا له :

ـ عائشةُ تدعو ، ويدعونَ معها على قَتَلةِ عثمانَ وأشياعِهم .

فدعا عليّ :

ــ اللّهمَّ العنْ قتلةَ عثمانَ وأشياعَهم .

وخرج رجلٌ من أنصارِ عليٍّ على فرسِه بين الصَّفَّين ، فقال :

ــ أيُّها النَّاس ، ما أنصفتُم نبيَّكم حيثُ أبرزتُم عَقِيلَته (زوجته عائشة) للسُّيوف .

فرشقوه بالنَّبل ، فحرَّك فرسَه ، وذهب إلى عليِّ ابن أبي طالبٍ ، وقال :

ــ ماذا تنتظرُ يا أميرَ المؤمنين ، وليسَ لك عند القومِ إلا الحرب .

وجد الإمامُ عليٌّ أنْ لا مفرَّ من الحرب ، فقام فقال :

ــ أيُّها النَّاس ، إذا هزمتُموهم فلا تُجهزوا على جريح ، ولا تقتُلوا أسيرا ، ولا تتبعوا مُوليًّا ، ولا تطلُبوا مدبرًا (هاربا) ، ولا تكشِفوا عَورة ، ولا تُمثّلوا بقتيل ، ولا تقربوا من أموالِهم إلا ما

تجدونَه في عسكرِهم من سلاحٍ أو عبدٍ أو أَمة ، وما سوى ذلك فهو ميراثٌ لورثتِهم على كتابِ اللّه .

وخرج عليٌّ بنفسِه على بغلةِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّه عليه وسلّم ، لا سلاحَ عليه ، فنادى :

ـ يا زُبيرُ ، اخرُجْ إليّ .

فخرج الزُّبيرُ وهو يحملُ سلاحَه ، فقيل لعائشةَ ؛ إنّ الزُّبيرَ قد خرج لعليّ ، فأحسَّتْ رُعبا ، فقد كانتْ تعلمُ أنَّ مصيرَ من يخرجُ لمبارزةِ عليٍّ الموت ، فأشفقتْ على زوجِ أُختِها أسماء ، وأظهرتْ جزعَها . فقيل لها إنّ عليًّا قد خرج لا سلاحَ عليه ، فاطمأنّت .

واعتنقَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه (أي تعانقا) ، فقال عليٌّ للزُّبير في عِتاب :

ـ ويْحَك يا زُبير ! ما الذي أخرجك ؟

ـ دمُ عثمان .

ـ أما تذكرُ يومَ لقيتَ رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم في بني بياضـه ، وهـو راكـبٌ حمارَه ، فضحِك إليَّ رسولُ اللّه ، وضحِكتَ أنتَ معـه ، فقلتَ أنت : يا رسولَ اللّه ، ما يدعُ عليٌّ زهْوَه ، فقال لك : ليس به زهْو . أتُحبُّه يـا زُبير ؟ فقلتَ : إني واللّهِ لأحبُّـه ، فقـال لـك : إنك واللّه ستُقاتِله وأنتَ له ظالم ؟

فقال الزُّبَيْر :

ـ أستغفِرُ اللّه ، لو ذكرتُها ما خرجت .

ـ يا زُبيرُ ارجع .

ـ وكيف أرجعُ الآن وقد اجتمعَ الجيشانِ للقِتال ! وهذا واللّه هو العارُ الذى لا يُغسَل .

ـ يا زُبيرُ ارجعْ بالعار ، قبل أن تجمَعَ العارَ والنار .

فخرج الزُّبيرُ وقد طأطأ رأسَه ، وسار ليترك ميدان القِتال .

ودارتِ المعركةُ واشتدَّتْ ، فزحف الإمامُ نحـو الجملِ بنفسِه ، فى كتيبتِه الخضراء من المهاجرينَ والأنصار ، وحولَه بنوهُ الحسنُ والحسينُ ومحمدُ ابنُ الحنفيَّة ، ودارتْ رحَى المعركةِ الرَّهيبـة ، فحمـل الإمامُ حملةً واحـدة ، فدخـل وسطَ جيشِ عائشة ، وراح يضربُ بسيفِه ، والرِّجالُ تفرُّ مـن بين يديْه ، وتجرى هنا وهناك ، حتى خضَّبَ الأرضَ بدمـاء القَتْلى ، ثم رجعَ وقد انثنَى سيفُه ، فأقامه بركبته .

وبدأتِ الهزيمةُ تدِبُّ فى صفوفِ عائشة ، فالتفَّتِ النَّاسُ حولَ الْهَوْدَج ، واشتدَّ القتال ، فكان الْهَودجُ هدفَ الإمـامِ ورجالِه ، ورأى طلحةُ انهزامَ جيشِه وأنصاره ، فرفع يديْهِ إلى السَّماء ، وقال :

ـ اللَّهمَّ إن كنَّا قد دَاهَنَّا (نافقْنا) فى أمرِ عثمان وظلمْناه ، فخذْ له اليومَ منا (انتقمْ لـه اليوم منا) حتى ترضى .

وسمع مروانُ ما قاله طلحة ، فخشىَ أن ينسحبَ كما انسحب الزُّبير ، فرماه بسهم ، فسقط طلحةُ يجود بأنفاسِه .

وحمل رجالُ عليٍّ على الجمل ، وضربه رجلٌ بسيفِه فسقط ، فأسرعَ النّاسُ إلى الهَوْدج ، وأنزلوهُ عن ظهرِ البعير ، وتركوه بين القتلى ، وكأنَّه قُنْفُذ ، مما رُميَ فيهِ من النَّبْل ، وأمر الإمامُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، وكان معه يحاربُ أختَه ، أن يذهبَ إلى عائشة ، ليحمِلَها بعيدا عن القتلى ، وقال له :

ــ انظرْ ، هل وصل إليها شيء ؟

وذهب محمّدٌ إلى الهَوْدَج ، وأدخلَ رأسَه فيه ، فقالت عائشة :

ــ من أنت ؟

ــ أخوك البَرّ .

ــ الحمدُ للّه الذى عافاك .

وخرج محمّدُ بنُ أبى بكرٍ بأختِه فى سكونِ اللّيلِ إلى البصْرَة ، وهدأَتِ المعرَكة ، وقد قُتِل طَلحة ، وقُتل الزُّبير غدرا ؛ فقد خرج رجلٌ خلفَه بعد أن تركَ القِتالَ وقتلَه ، وأمَّنَ الإمامُ النّاسَ جميعا ، وجهَّزَ عائشةَ للعودةِ إلى المدينة حتى إذا جاء ميعادُ خروجها قالت للنّاس :

ــ يا بَنِىّ ، تعتّبَ بعضُنا على بعض استبطاءً واستزادة (أى استبطاءً للخير ، واستزادةً منه) فلا يعتدِيَنَّ أحدٌ منكم على أحدٍ بشىءٍ بلغه من ذلك ، إنّه واللّه ما كان بينى وبينَ علىٍّ فى القِدمِ إلا ما يكونُ بين المرأةِ وأحمائِها ، وإنّه عندى على مَعْتَبتِى منَ الأخيار .

فقال علىّ :

ــ صدقتْ ، واللّه ما كان بينى وبينَها إلا ذلك ، وإنّها لزوجةُ نبيِّكم صَلّى اللّه عليه وسلّم ، فى الدُّنيا والآخرة .

وسارتْ عائشة ، وخرج عليٌّ ليشيِّعَها أَميالا ، وخرج بنوهُ معها يوما ، وفى الطَّريق قالتْ :

ـ وددتُ أنِّى لم أَخرج ، إِنَّما قيل لى تَخرُجينَ فتُصلحينَ بين النَّاس .